فى التنوير الاسلامى 1

الصحوة الإسلامية في عيون غربية

تأليف
د. محمد عمارة

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

اسم السلسلة : فى التنوير الاسلامى
اسم الكتاب : الصحوة الاسلامية فى عيون غربية
تأليف : دكتور / محمد عمارة
تاريخ النشر : مارس ١٩٩٧
رقم الإيداع : ١٤٢٠٧ / ٩٦
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-14-0549-7
الناشر : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسى : ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة ٦ أكتوبر
ت : ٣٣٠٢٨٧ - ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١
فاكس : ٠١١/٣٣٠٢٩٦
مركز التوزيع : ١٨ شارع كامل صدقى - الفجالة - القاهرة
ت : ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ - فاكس ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥
إدارة النشر : ٢١ ش أحمد عرابى (برج النهضة) المهندسين - القاهرة
ت : ٣٤٦٦٤٣٤ - ٣٤٧٢٨٦٤ فاكس : ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦

١

مصطلح الأصولية ؟؟

فى «الملف» الذى أعدته ونشرته مجلة (الوسط) - فى أعدادها السبعة - ٩٦ - ١٠٢ الصادرة من ٢٩ - ١١ - ١٩٩٣م إلى ١٠ - ١ - ١٩٩٤م - عن رؤية الاستشراق المعاصر للظاهرة « الأصولية » الإسلامية ، وخاصة فى العالم العربى . . طالعنا آراء ثلاثين مستشرقا ، من أبرز أعلام الاستشراق المعاصر - بل إن من بينهم من هم أبرز المستشرقين المعاصرين بإطلاق . .

كذلك مثل هؤلاء المستشرقون أهم شعوب الغرب ، المهتمة بالعالم الإسلامى ، والمتابعة لقضاياه . . وغطت تخصصاتهم مختلف ميادين وحقول علوم الاستشراق - الأكاديمى منها والسياسى . . الأدبى منها واللغوى . . الاجتماعى منها والاقتصادى .. الدينى منها والدنيوى . . القديم منها والحديث والمعاصر - كما غطت منطلقاتهم أغلب مناهج ومذاهب وفلسفات الغرب فى النظر والبحث والتحليل . . وأيضا تنوعت التجارب التاريخية والمعاصرة لشعوب هؤلاء المستشرقين وحكوماتهم وتفاوتت من نزعات وحملات الاستعمار لعالمى العروبة والإسلام . .

الأمر الذى جعل ويجعل لهذا «الملف» ميزة البلورة للصورة الغربية ، الأقرب إلى التكامل ، عن «الظاهرة الإسلامية» فى ديار العروبة والإسلام ، وفى المهاجر التى تعيش فيها أقليات إسلامية .

فهذا «الملف» ليس رأى مستشرق - مهما بلغ علمه . . وكان حظه من الإنصاف أو التحامل . . ولا رأى مؤسسة بحثية - مهما كان حظ موقعها من الصداقة أو العداوة . . ونصيب باحثيها من الموضوعية أو الذاتية . . وإنما هو «بانوراما» الرؤية الغربية - من روسيا إلى أمريكا - عبر إيطاليا وفرنسا وألمانيا وهولندا وأسبانيا وإنجلترا - . . فكأنه «العدسة الغربية اللامّة» للظاهرة الإسلامية بعامة ، وفى العالم العربى على وجه الخصوص . . ويكفى - فى الدلالة على ذلك - أن تكون هذه «العدسة» قد جمعت رؤى «جاك بيرك» ، و «مكسيم رودنسون» ، و «دومينيك شوفالييه» و«بيارتييه» من فرنسا - و «هومى بابا» ، و «روبن أوستل» ، و«فردها ليداى» ، و «ديريك هوبوود» ، - من إنجلترا - و «فيتالى ناوومكين» ، و «الكسندر سميرنوف» ، و «آرتور سعادييف» - من روسيا - و «بيدرو مارتينيث مونتانيث» ، و «كارمن رويث» ، و«مرثيدس ديل آمو» ، و «فرناندو دى أغريدا» ، و «رودولف بيترز» ، و «يان بروخمان» ، و «يوهانس نانسن» - من هولندا - و «روجر أوين» ، و «جون فول» ، و «جون إيسبوسيتو» ، و «ريتشارد بوليت» - من أمريكا - و «إيزابيلا كاميرا دافليتّو» ، و «فرانشيسكو غابرييلى» ، و «دانييلا آمالدى» ، و «آداليندا غاسبارينى» ، و«سلفاتورى بونو» ، و «كلاوديو لوياكونو» - من إيطاليا - و «جودرون كرامر» ، و «أردموته هيللر» ، و «ستيفان فيلد» ، و «أودو شتا ينباخ» ، - من ألمانيا - . .

يكفى أن تضم هذه «العدسة» رؤى أعلام الاستشراق هؤلاء ، لتكون - بحق - «عدسة لامّة» لرؤية الغرب «للشأن الإسلامى» الذى تصاعد الجدل حوله فى هذه السنوات . .

وبسبب من قيمة ومكانة هذه الرؤية الاستشراقية لأخطر شئوننا المعاصرة ، كانت الوقفة الجادة والمتأنية التى وقفتها حيال هذا «الملف» . . والتى أقدم معالمها إلى القارئ فى هذه الصفحات . .

* * *

ولقد آثرت فى دراسة هذا الملف ، والتقويم لوجهات نظر أصحابه ، أن أعتمد منهاج «التفكيك والتركيب» سبيلا «للتحليل والتقويم» . . الأمر الذى وضع ويضع يدنا على أهم المعالم التى رآها هؤلاء المستشرقون فى صورة «الحالة الإسلامية » ، ورسموها فى إجاباتهم على الأسئلة الثلاثة التى سألهم الإجابة عنها مراسلوا (الوسط) - فيصل جلول (فرنسا) ، عمار الجندى (بريطانيا ، الولايات المتحدة) ، إسماعيل زايد (هولندا) ، عرفان رشيد (إيطاليا) ، شوقى الريس ، طلعت شاهين (إسبانيا) ، إيغور تيموفييف (روسيا) ، عبد الفتاح خليل (ألمانيا) - . . وهى الأسئلة التى تقول :

١ - كيف تفسر الظاهرة الأصولية ، وما يحدث فى العالم العربى اليوم؟

٢ - ماهو ، فى رأيك ، انعكاس هذه الظاهرة على العلاقة بالغرب ، وعلى المهاجرين العرب والمسلمين؟

٣ - ما الذى يميز الحركات الأصولية بين بلد عربى وآخر ، وكيف ترون إلى مستقبل تلك الحركات عموما؟ .

ولقد أثمر «التفكيك . . والتركيب . . والتحليل» لإجابات المستشرقين على هذه الأسئلة . . أثمر «خارطة» الرؤية الاستشراقية للظاهرة الإسلامية ، تلك التى تميزت فى تضاريسها ومعالمها خمس قضايا :

أولها: قضية مصطلح «الأصولية» . . ومواقف المستشرقين من صدق تعبيره عن الحالة الإسلامية وحركاتها؟

وثانيها: قضية التنوع والوحدة فى فصائل الحركة الإسلامية وتوجهاتها . . حقيقتها؟ . . ومداها؟ . . وميادينها؟ ودلالتها؟ . .

وثالثها: الأسباب الفكرية . . والمادية – التاريخية . . والمعاصرة – الداخلية . . والخارجية – التى أفرزت وأثمرت وأبرزت هذه الحركات الإسلامية ، وهذا المد الإسلامى؟ . .

ورابعها: مشكل العلاقة بين المد الإسلامى وبين الغرب؟ . . ومدى ما فى الحديث عن خطر المد الإسلامى على الغرب من حقيقة أو وهم؟ . . ومن هو الصانع الحقيقى والأكبر «لصورة هذا الخطر»؟ . .

وخامسها: نظرة على المستقبل . . وهل لهذه الحركات الإسلامية من هذا المستقبل نصيب؟ . . وإن كان لها منه نصيب ، فما هو حجمه؟ . . وماهى الشروط التى لابد من توافرها حتى لا ينبذ هذا المستقبل تلك الحركات على «قارعة التاريخ» – وفق عبارة أحد المستشرقين – ؟ ! . .

تلك هى معالم «الخارطة» التى رسمتها إجابات ثلاثين مستشرقا – مثلوا مدارس الاستشراق الغربى . . وتيارات حضارته . . وألوان أيديولوجياته – ومرجعيات دياناته . . ومصالح دوله وقومياته وتكتلاته . . ودرجات ألوان الطيف فى علاقات هذا الغرب بوطن العروبة وعالم الإسلام– . .

وهى «الخارطة» التى أحسبها من أهم الصور التى رسمها علماء الغرب للظاهرة الإسلامية . . التى هى أعظم وأخطر ظواهر العصر الذى نعيش فيه . . والتى استحقت ، لذلك ، أن نقف أمامها وقفة جادة ، تليق بما بذل فيها من جهد ، وبما لموضوعها من آثار تزلزل واقعنا العربى والإسلامى زلزالا شديدا . . ! . .

مصطلح «الأصولية»:

لقد رفض أغلب المستشرقين إطلاق مصطلح «الأصولية» بمعناه الغربى ، المحمل بالدلالات السلبية ، على الحركات الإسلامية . . ورفضوا المساواة بين الإسلام - فى علاقته بالسياسة والدولة - وبين الديانات الأخرى . . وحتى الذين أطلقوا على «حركات العنف والراديكالية» الإسلامية مصطلح «الأصولية» ، رفضوا التسوية بينها وبين أصوليات الديانات الأخرى . . وذلك ، لدورها الإحيائى - الأخلاقى والروحى - . . ولبرامجها ، التى تصنفها فى «حركات التغيير» ، وليس فى «التقليد والجمود الأصولى» - كما هو حال الأصوليات الغربية - ولتميز مرجعيتها الإسلامية عن المرجعيات الدينية للأصوليات الأخرى . .

ولفت كثير من المستشرقين الأنظار إلى ما أسماه أحدهم بـ«الأصوليات الليبرالية الغربية» ، الطامعة فى اقتصاديات العالم الإسلامى وموقعه الاستراتيجى . . وإلى حملة هذه «الأصوليات الليبرالية» على العرب والمسلمين ، وذلك بإلصاق مصطلح «الأصولية» - ذى المعنى السلبى - على الحركات المعارضة للنموذج الغربى - الذى فشلت تطبيقاته فى الواقع العربى - والمعارضة لنظم الحكم الفاشلة والعاجزة والفاسدة والتابعة ، التى حكمت فى حقبة مابعد الاستقلال . .

نعم . . رأى أغلب المستشرقين هذه الآراء . . ولما كنت على يقين من أن هذه الآراء التى ارتآها هؤلاء « العلماء الغربيون» ستصدم كثيرا من «مثقفينا المتغربين» ، وستبرز التفاوت بين « علم الأئمة» و «جهل المأمومين» . .! . . فلقد آثرت عرض آراء علماء الاستشراق

فى كل هذه القضايا بذات النصوص التى كتبوها ، والتى نشرتها (الوسط) فى هذا «الملف» الفريد! . .

فأبرز المستشرقين الغربيين - إن لم يكن عميدهم - «جاك بيرك» - يرفض إطلاق مصطلح «الأصولية» على الظاهرة الإسلامية . . ويدعو إلى التمييز ، فى المد الإسلامى ، بين عامة «المسلمين» وبين «الإسلاميين» ، الذين يحملون بديلا إسلاميا للمدرسة الغربية ونموذجها فى التحديث . . فيقول : «أنا أرفض تعبير «الأصولية» ، لأنه آت من النزاعات داخل الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية . . هناك مسلمون (العامة) ، وهناك الإسلاميون الذين يشددون على قدرة الإسلام على إيجاد حلول مناسبة لمشاكل الحياة اليومية ، وقدرته على بناء دولة ومؤسسات وهؤلاء لا يقفون عند الطبيعة الدينية للإسلام فقط . هذه أطروحة من نسميهم الإسلاميين . . إنها حركات تسعى إلى تقريب العالم العربى من منابعه . . ولديهم خطابات تجعلهم مختلفين بعضهم عن بعض ، لكنهم يلتقون فى الدعوة إلى الرجوع إلى الأصول ، وبخاصة إلى القرآن ، ويدعون إلى إعادة تأصيل القرآن باعتباره قادرا على تقديم الحلول للمشاكل التى يطرحها العالم المعاصر . يطرحون ذلك فى مواجهة المجتمعات التى وضعت نفسها منذ ١٠٠ سنة فى مدرسة الغرب ولم تحقق النجاحات المطلوبة» . .

فالظاهرة الإسلامية - فى رأى «جاك بيرك» - ليست «أصولية» - بالمعنى السلبى الغربى لهذا المصطلح - وإنما هى حركات إسلامية تسعى إلى تقريب مجتمعاتها من منابعها ، وإقامة دولة ومؤسسات تقدم حلولا لمشكلات العصر ، إنطلاقا من مرجعية

القرآن ، بدلا من مرجعية المدرسة الغربية التى لم تحقق النجاحات المطلوبة على امتداد المائة عام الماضية . .

ومع «جاك بيرك» تقف الأغلبية الساحقة من المستشرقين - الذين استطلعت (الوسط) آراءهم- فـ «روجر أوين» - أمريكا - يرى أن مصطلح «الأصولية» مصطلح غربى ، أسىء استعماله عندما أطلق على الحركات الإسلامية العنيفة ، ويقول : « أرى أن كلمة الأصولية أسىء استعمالها لوصف الفاعلية الدينية الإسلامية (العنيفة) فى الشرق الأوسط ، وكانت صيغت أصلا فى الغرب لوصف حركة قامت أوائل القرن الحالى ، وتميزت برفضها عددا من مظاهر الحياة الحديثة المعاصرة . .» .

فهو يرفض وصف «الأصولية» - بالمعنى الغربى - حتى لحركات العنف والراديكالية الإسلامية! . .

ويضيف «جون إيسبو سيتو»- أمريكا - إلى هذا الرأى ، التنبيه على خطأ اعتبار الإسلام معادلا للأصولية ، بالمعنى الغربى ، فيقول : «من الخطأ اعتبار الإسلام معادلا للأصولية . . واعتبار الأصولية مرادفة للتطرف والإرهاب» . .

أما «هومى بابا» - بريطانيا - فإنه يضيف إلى هذه الآراء حقيقة ملفتة للأنظار ، وذلك عندما يتحدث عن وجود «أصولية ليبرالية» غربية هى التى تقود حملة إلصاق مصطلح «الأصولية» - بمعانيه الغربية السلبية - على الظاهرة الإسلامية فى العالم العربى ، لتفتعل منه عدوا بديلا للشيوعية ، فيقول : «الأصولية : كلمة ذات دلالة سلبية تلصق بالعالم العربى . . مع أن الظاهرة عالمية . .بل هناك الإرث التحديثى ، الذى غدا «أصولية ليبرالية ديمقراطية» نجدها فى الولايات المتحدة ومعظم الدول الأوربية . . والأصوليون

الليبراليون الديمقراطيون ، الذين ابتهجوا بموت الشيوعية وانتصار القيم الرأسمالية الليبرالية ، يواصلون الترويج للعالم الإسلامى كبديل من «إمبراطورية الشر» السوفياتية ، واهتمامهم بالوطن العربى يعود أساسا إلى غناه بالثروات الطبيعية والاستراتيجية ، كما سيتابعون مطالبة المهاجرين ، من مسلمين وغيرهم ، بالتخلى عن تاريخهم وثقافتهم والاندماج بالشعب «المضيف» ، أو بتحمل معاناتهم على يد العنصرية المؤسساتية والعامة» . .

فنحن - برأى المستشرق البريطانى - أمام «مؤامرة» «أصولية ليبرالية غربية» على ثروات العالم العربى وموقعه الاستراتيجى وثقافته وتاريخه . . وهى تتوسل إلى تحقيق مقاصدها بهذه الحملة التى تلصق بالعرب وبالمهاجرين العرب الصفات السلبية لمصطلح «الأصولية»! . .

أما «روبن أو ستل» - بريطانيا - فيرى فى مصطلح «الأصولية» مصطلحا عاجزا عن التعبير عن التنوع الموجود فى الظاهرة الدينية الإسلامية ، فيقول : «لدى - مثل كثيرين - مشكلة مع عبارة «الأصولية» ، فهى تفتقر إلى التحديد والدقة ، وتستخدم على نحو سائب جدا فى وصف أفراد وجماعات وحركات شديدة الاختلاف فى العالم الإسلامى ، مثل :

(ا) الصحوة الدينية منذ سنة ١٩٧٠م فى دول جميع مواطنيها أو معظمهم مسلمون .

(ب) الأيديولوجيا السياسية الجبارة التى قبضت على بعض بلدان العالم العربى خلال السنوات العشرين الأخيرة حتى صار الإسلام سمة رئيسية للخطاب السياسى . .

(جـ) الرغبة فى وضع الشريعة من جديد موضع التطبيق .

. . إن الصورة المألوفة للأصولى هى نمطية مكرسة واختزالية ، وهى عاجزة حتى عن إيضاح التنوع الموجود فى الأصولية ذاتها . .»! . .

ومن روسيا ، يرى «فيتالى ناوومكين» : أن وصف «الأصولية» ، بمعناه السلبى الغربى ، لا ينطبق على الواقع الإسلامى . . وأن سلبيات الحركات الإسلامية هى «التطرف» أما إيجابياتها فهى : العودة إلى الأصول الدينية ، والأصالة الشعبية ، ومحاولة إيجاد طريق خاص لتطور المجتمعات العربية والإسلامية . . فيقول : «مصطلح الأصولية الإسلامية» : مصطلح أطلق فى الغرب ، ولا ينطبق بدقة على الحياة الواقعية . ففى الأصولية نفسها شحنة إيجابية وشحنة سلبية . ومن الأصح الحديث عن ظاهرة التحرك الإسلامى أو الإسلام السياسى ، مع الانحراف نحو التطرف – وهو ما يقصده عادة أولئك الذين يضمنون مفهوم «الأصولية» معنى سلبيا . أما الأصولية نفسها ، كعودة إلى الأصول الدينية ، وأصالة هذا الشعب أو ذاك ، ومحاولات لإيجاد طريق التطور الخاص ، فقد يكون له طابع إيجابى أيضا» . .

فنحن – برأى «فيتالى ناوومكين» – أمام ظاهرة «التحرك الإسلامى أو الإسلام السياسى» . . ولسنا أمام «أصولية» بالمعنى الغربى . .

أما المستشرقة الإسبانية «كارمن رويث» ، فإنها تنتقد استخدام مصطلح «الأصولية» ، للتعبير عن الظاهرة الإسلامية ، لأنه مصطلح غامض ، لا يميز استعماله بين الأصولية التى تمثل الأصالة الحضارية ، وبين رد الفعل الراديكالى على العدوان الواقع على الذات الحضارية من الخارج والداخل . . وترى أن الأصولية ، بمعناها

الشائع ، تتعارض مع روح الدين الإسلامى . . ثم تدعو إلى التمييز بين «أصوليات الدول» ، التى تتحالف مع القوى الخارجية ، وبين «أصوليات الجماعات» ، التى تختلف من بلد إلى آخر . . فتقول : «إن لفظة «أصولية» مشوبة ببعض الغموض ، فهى أحيانا يراد بها التمسك بمبادئ أخلاقية لا يجوز التخلى عنها ، وأحيانا أخرى تأتى رديفة للراديكالية السياسية من حيث كونها نمطا أو شكلا لعلاقة بين مواطنين فى مجتمع واحد ، أو بين دولة وأخرى على الصعيد العالمى . . الأصولية هى الفرع الدينى الطالع من جذع الأصالة بمفهومها الحضارى العام . . والأصولية الراديكالية هى ردة فعل بدائية للدفاع عن الذات إزاء شتى أشكال العدوان والظلم الخارجيين والداخليين أحيانا . . وهى تتعارض أصلا مع روح الدين الإسلامى . وهناك أصوليات الدول ، التى تتحالف عادة مع القوى الأجنبية . . وأصوليات الجماعات التى تختلف من بلد إلى آخر ، وفيما بينها ضمن بلد معين . .»

وعلى درب الدعوة إلى التمييز بين «الدين» وبين «الأصولية» بالمعنى الغربى ، تمضى المستشرقة الإيطالية «إيزابيلا كاميرادا فليتّو» . . فالحركات الأصولية ، بالمعنى الغربى ، هى حركات فاشية رجعية تستخدم الدين درعا وشعارا للتأثير فى الناس . . فتقول : «لا أرى ضرورة موضوعية أو فلسفية للربط بين الدين والظاهرة الأصولية ، التى هى نتاج منطق سياسى . فأنا أفضل ، فى هذه الحالة ، الحديث عن حركات سياسية ذات طابع رجعى أو حتى فاشى فى بعض الأحيان ، تستخدم الدين درعا وشعارا للتأثير على ذهنية الناس . وهذه الحركات ليست محصورة فى العالم الإسلامى فحسب ، بل هى موجودة فى الغرب أيضا . .»

أما المستشرق الألماني «أودو شتا ينباخ» ، فيرى أنها حركات «إسلاموية» - وليست أصولية - لأنها حركات سياسية ، تسعى للاستيلاء على السلطة كى تطبق مبادئ الدين . . «إنها حركات سياسية . . هدفها الاستيلاء على السلطة ، لتطبيق مبادئ الدين . . فالدين يتحول ، مع الأصوليين ، إلى نوع من الأيديولوجيا . . لذا ترانى أقترح ، عوض «الأصولية» ، مصطلحا آخر هو «الإسلاموية» . .» ! . .

وإذا كان المستشرق الفرنسى الشهير «مكسيم رودنسون» ، قد استخدم المصطلح - «الأصولية» . . ، فلقد دعا إلى تمييز الأصولية الإسلامية عن الأصوليات الدينية الأخرى ، وذلك لتميز الإسلام عن الديانات الأخرى ، بأنه دين ودولة ، فله أصول فى الدولة والسياسة . . «إن الأصولية الإسلامية متميزة عن الأصوليات الأخرى- وخاصة المسيحية - بسبب تميز الإسلام ، فليس فى المسيحية دولة . . أما الإسلام فالأمر فيه مختلف . . كانت لديه فى «المدينة» سلطات سياسية كاملة وسلطات روحية ، وكان يرد على كل أنواع الأسئلة التى تطرح ، ويقدم حلولا للمشاكل من كل نوع . . وحتى عندما اختلف الوضع ، ظل نموذج «المدينة» موجودا على الدوام ، وفى كل الظروف التى ساءت فيها الأوضاع ، كان التفسير الذى يقدم هو أن ما أصابنا سببه ابتعادنا عن الأصول . .» .

ونفس الرأى - الذى يميز بين الإسلام والديانات الأخرى - يراه المستشرق الهولندى «يان بروخمان» ، الذى يقول : «من الناحية النظرية كل المسلمين أصوليون ، كما أن الإسلام هو دين ودولة ، أما من الناحية العملية ، فالأمر ليس كذلك . وإذا أخذنا مصر كمثال ، نرى أنها دولة إسلامية إداريا ، ولكنها ليست ثيوقراطية

على الطراز المألوف ، بل دولة مدنية . وإذا أردنا رصد العلاقة بين الدين والسياسة فى العالم الإسلامى ، نجد أن الإسلام كدين مرتبط بشكل لافكاك منه بالسياسة . والسبب يرجع إلى التاريخ الإسلامى ، ونشأة هذا الدين ، فهو بدأ كدولة ثم انتشر . .»

فنحن أمام تميز مصدره الإسلام ذاته ، وإذا كانت الأصولية بالمعنى الغربى رفضا للدولة المدنية ، ودعوة إلى دولة ثيوقراطية ، فإن الدولة الإسلامية هى دولة مدنية مرجعيتها دين الإسلام! . .

أما المستشرق الفرنسى «دومينيك شوفالييه» ، فهو يضيف إلى نفى الشبه بين الأصولية الإسلامية والأصولية المسيحية - التى يراها متميزة بالتطرف! . . يضيف وجهة نظر تقول : إن الظاهرة الإسلامية هى حركة إحياء وتجديد دينى ، تستهدف التحرير - فى الأخلاق والسياسة معا - . . وهى ليست بنت السنوات الأخيرة ، فالعودة إلى الأصول والينابيع قد عرفها العرب والمسلمون منذ تيار الإحياء الدينى الذى قاده محمد عبده ورشيد رضا . . «فالأصولية الإسلامية لا تشبه الأصولية المسيحية ، والأخيرة تميزت بالتطرف . والفكر الإسلامى الأصولى يقدم نفسه بوصفه عودة إلى الأصول ، وهذه الظاهرة ليست جديدة . إن الفكر العربى والإسلامى ، منذ نهاية القرن التاسع عشر ، يستند إلى مبدأ الرجوع إلى الينابيع ، وبعض مفكرى الأصوليين والحركات الإسلامية يرجع اليوم إلى من سبقه فى هذا المجال ، أعنى بذلك محمد عبده ، ورشيد رضا ، أو آخرين . فالحركة الأصولية الإسلامية مختلفة تماما عن الأصولية الكاثوليكية بزعامة المونسنيور لوفيفر ، ولا مجال للمقارنة بين الحركتين ، وإذا كان لابد من مقارنة ما ، فإن هذه المقارنة تصلح مع حركات التحرير الدينية التى ظهرت فى أمريكا اللاتينية . . لقد

نمت الحركات الإسلامية كحركات أخلاقية وسياسية فى آن ، وهى تلعب دورا على المسرح السياسى» . .

فهى إذن حركات إحياء دينى ، والسياسة بعد من أبعادها . .

ومع هذا التحليل يقف المستشرق الإيطالى «سلفاتورى بونو» ، الذى يرى فى الأصولية الإسلامية دعوة إلى العودة لجوهر الدين والأصول والجذور ، واعتماد المبادئ الأساسية للإيمان ، ووضع كل ذلك فى ممارسة إنسانية جادة . . أما «التطرف والعنف والإرهاب» ، فإنها «الصورة» التى يصنعها الإعلام ، ويقدمها على أنها الأصولية الإسلامية ! . . «إن أى معرفة موضوعية ، وأبسط نظرة إيجابية إلى الموضوع ، تقتضى رفض ما سعت أجهزة الإعلام إلى ترسيخه فى أذهان الناس ، من ربط بين الأصولية الإسلامية ومعانى التطرف والعنف ، وحتى الإرهاب . فالأصولية جوهرها الدين ، وأساسها العودة إلى الأصول والجذور ، واعتماد المبادئ الأساسية للإيمان ، وذلك لتأكيد هذه المبادئ وممارستها بجد وصراحة . ويصح هذا أيضا على الديانات السماوية الأخرى التى شهدت عبر تاريخها اتجاهات وحركات أصولية» .

وهو نفس ما يقوله المستشرق الروسى «الكسندر سميرنوف» : «لا يجوز الخلط بين الأصولية الإسلامية والتعصب أو التطرف ، لأن الأصولية تعبر عن مفهوم أوسع»

وإذا كانت الأصولية - برأى المستشرق الأمريكى «جون فول» - هى محاولات تغيير اجتماعى ينسجم مع العقيدة والإيمان والتقاليد العريقة . . فإنها ليست كلها رجعية ومحافظة ، ولا هى دائما عنيفة وراديكالية . . ففيها ظواهر عديدة ، تتعدد بتعدد المناهج والتجارب ، فى الواقع المتغير ، محليا وعالميا . . «فالأصولية ، فى العالم الراهن ،

ليست ظاهرة واحدة ، بل تجتمع تحت تلك التسمية مجموعة من التجارب و «الظواهر» التى تعكس مناهج عدة فى مقاربة الطبيعة المتغيرة للمجتمعات المحلية والعالمية . . ولا يجوز اختصار الأصوليات إلى نزعات محافظة تبغى إيقاف التطور ، كما أنها ليست فقط مساعى رجعية ، القصد منها هو إعادة عقارب الساعة إلى الوراء ، إلى ظروف اجتماعية - سياسية منقرضة . بل إنها محاولات تهدف إلى تغيير المجتمع ، بشكل ينسجم مع تصورات معينة ، وتقوم هذه التصورات على تقاليد عريقة ، وعلى المكانة التى تحتلها العقيدة والإيمان فى مجتمع ما . وقد تكون هذه الجهود ، الساعية إلى التغيير ، راديكالية فى بعض وجوهها ، تميل إلى العنف ، وربما كانت أحيانا أخرى برامج هادئة لتحول اجتماعى سلمى . . إنها تختلف من حيث الوسائل التى تلجأ إليها للتغلب على الظروف المكرسة : الهجرة ، أو الإصلاح والتجديد . .» .

فالأصولية - فى هذا الرأى - : حركة تغيير اجتماعى ، مرجعيتها الدين والإيمان الدينى السائد فى المجتمع . . فهى إصلاح وتجديد ، تختلف وسائله باختلاف التحديات التى تواجهها .

أما المستشرق الإيطالى الشهير «فرانشيسكو غابرييلى» ، فإنه يفضل «الأصولية» على «القومية» . .

فالأصولية الإسلامية تدعو إلى «الكونية الإسلامية» ، فهى أكثر إنسانية وأوسع أفقا من القومية ، التى تقف اهتماماتها عند شعب واحد بعينه . . والخيار الدينى - عنده - أفضل من الخيار القومى ذى الطابع الغربى . . وإذا كنا نرفض من الأصولية «العنف» ، فإن القومية ليست أقل عنفا من الحركات الأصولية . . «إن «النظرية» الأصولية . . تنطوى ، بشكل من الأشكال ، على بعض الإيجابية ،

قياسا إلى الحركات القومية البحتة التى تتميز بها بعض الدول الغربية . «الأصولية» تنادى إلى «الكونية الإسلامية» ، وهى تعبير عن الرغبة فى لم شمل كل الشعوب ، لاشمل شعب واحد بذاته . من جانب آخر ، ليس بإمكاننا أن نغض الطرف عن أحد المظاهر التى تمتاز بها الحركة الأصولية ، أى «العنف» الذى يبرز فى حالات كثيرة . فهذا المظهر يحول الحركات نفسها إلى سبب وحافز للقلق . لكن الرغبة التى يعلن عنها بعض الحركات الأصولية فى تطبيق مبادئ الدين ، بغض النظر عن الاختلافات والتباينات القومية والاجتماعية ، أمر يمثل خيارا إيجابيا ، وأنا - (والكلام لغابرييلى) - أفضله فى بعض الأحيان ، على خيارات ليست أقل عنفا من الحركات الأصولية نفسها» .

ومن إيطاليا - أيضا - يأتى رأى المستشرق «كلاوديو لوياكونو» ، الذى يرفض فى الأصولية التعصب ورفض الآخر . . ويتحدث عن إيجابياتها - وهى عنده أكثر من السلبيات - وذلك من مثل الدعوة إلى العدل والحرية والأصالة فى الهوية الثقافية والروحية . . فيقول : « ظاهرة الأصولية فيها إيجابيات كثيرة . . منها التعطش إلى العدالة والحرية ، ومعاداة أشكال الديكتاتورية والسلطوية ، والسعى إلى استعادة الأشكال التقليدية التى تأقلمت مع أصعب الظروف ، وصمدت مع مرور الزمن ، فى كثير من البلاد العربية والإسلامية . وما يلفت النظر أيضا ، ويثير الإعجاب بين تجليات الأصولية التى نتفق معها : نزعة المحافظة على الهوية الثقافية والروحية الخاصة ، والرغبة فى تحقيق ذلك ضمن إطار اجتماعى أقل ظلما وعسفا . . أما الملامح السلبية التى تثير الاستنكار ،

فتتلخص فى حالة التعصب ، ورفض من يمتلك آراء ثقافية وقيما فكرية مغايرة ومختلفة» .

وعلى حين يتفق المستشرق الألمانى «ستيفان فيلد» مع الذين يرفضون التسوية بين الإسلام والأصولية . . فإنه يدعو إلى عدم اختصاص الأصولية بالمسلمين وبالعالم العربى ، ففى الغرب أصولية أكثر عنفا «فالأصولية ليست ظاهرة إسلامية فقط ، إنها أيضا ظاهرة مسيحية ويهودية . . وهى ليست حكرا على منطقة محددة . . وإذا ما كانت الأصولية فى العالم العربى والإسلامى ترفض العنف فى الخطاب العلنى وتمارسه فى الخفاء ، فإن الأصولية الجديدة فى ألمانيا - التى تحرق الأتراك أحياء فى بيوتهم - تقر بالعنف فى القول وفى الفعل . وعلينا أن نتحاشى كليا الربط بين الدين الإسلامى وبين أفراد وزعماء ، مثل الخمينى أو غيره ، ذلك أن الإسلام أكثر شمولية من أن نحصره فى أى شخص أو أى مفكر . ثم إن التراث الإسلامى متعدد ومتنوع ، فيه المعرى وابن رشد وابن خلدون وابن تيمية وابن عربى والجاحظ وغيرهم . . لذا يتحتم علينا أن نخرج الإسلام من الدوائر الضيقة التى يحصره فيها البعض . .» .

أما المستشرق الهولندى «يوهانس يانسن» فإنه يرى فى الأصولية دعوة لتسطيح الدين واختزال روحانيته الواسعة الشاملة ، وتحويله إلى مجرد أيديولوجيا تتطلع إلى إجراء تغييرات فى نظام الحكم . . وهو يراها كذلك فى كل الديانات . . «فالظاهرة الأصولية - فى كل الديانات - هى دعوة لتسطيح الدين وتقليصه من تقاليد روحية واسعة شاملة إلى أيديولوجيا محددة ، تتطلع إلى إجراء تغييرات فى نظام الحكم» . .

وتشذ معه – عن ما يشبه الإجماع من المستشرقين الذين شاركوا فى «الملف» – فتسوى بين الأصولية العربية والأصوليات الأخرى – المستشرقة الإيطالية «آداليندا غاسبارينى» ، التى تقول : «ليس هناك اختلاف جوهرى بين الأصوليات العربية والأصوليات التى ظهرت وتظهر فى أوربا أو فى أمريكا ، فكل هذه الظواهر ردود فعل تتمسك بزمن غابر ، متخلف ، قياسا إلى الواقع المعاش» . .

على حين تراوحت آراء كل الذين عرضوا رأيهم فى مصطلح «الأصولية» ، بين رفض إطلاقه على الظاهرة الإسلامية . . أو قبول إطلاقه مع التأكيد على تميز الأصولية الإسلامية عن غيرها . . وذلك لما رأوا فيها من دعوة إلى الإحياء الدينى هى أوسع من الإسلام السياسى ومجرد الأيديولوجيا . . ولما لحوا فى برامجها من دعوة إلى التغيير ، ومحاولة لتحرير الذات العربية والإسلامية من قهر النموذج الغربى الذى سعى ويسعى لإلغاء ثقافة المسلمين وتاريخهم . . ولما قالوه عن تميز مرجعيتها – الإسلام – عن المرجعيات الدينية الأخرى ، بماله من علاقة بالدولة والسياسة ، ومن ثم قيامه بدور النموذج لكل حركات الإحياء والتجديد الإسلامية على مر تاريخ المسلمين . .

تلك هى وقفة الاستشراق الغربى المعاصر أمام مصطلح «الأصولية» ، فى علاقته بالحركات الإسلامية . . وهى درس فى «الفكر الغربى» نجد أنفسنا مدعوين إلى أن نتعلم منه الكثير؟! :